التقديم الذي كتبه لها الدكتور جورج حنا تعتبر علامة مهمة على الطريق . وهي ذات نبرة ميلودرامية وعقلانية باردة في بنائها وتأثيرها . الا انها لم تستقبل استقبال المكتشف المتعب لبقعة جغرافية جديدة وارض صالحة وجديدة للنضال من اجل العدالة الانسانية ولصالح بشر طيبين يعيشون بفزع تحت ظل الحراب . وقد تجاهل النقاد الرواية وان وجدت طريقها اللائق الى نفوس آلاف القراء العرب في كل مكان . وان لرواية « لاجئة » دورا رياديا واضحا والدور الذي لعبته ، وان كان عديم الاثر على تطور مستقبل الرواية العربية ، دور تبشيري وتعليمي نبه الروائيين العرب الى موضوع كانوا غافلين عنه وان كان تحت انوفهم .

وكان من الطبيعي ان تقطع الرواية العربية المكتوبة عن القضية الفلسطينية من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٧ شوطا لاهثا وبطيئا الى ان جاءت حرب الايام الستة فأحدثت في وجدان القصاصين العرب هوة لا تردم من الندم فأصبح من التقليدي جدا الحديث عن أدب ما قبل حزيران ١٩٦٧ وما بعد حزيران حيث كتبت روايات عديدة يمكن تسميتهـا بالروايات الحزيرانية . لقد شهدت العقلية العربية تطورا ملحوظا بعد صدمة حزيران وما صدر من اعمال فنية وأدبية خلال الفترة القصيرة التي تلت حزيران يشهد على القول السالف الذكر . وخلال أربع سنوات ونيف صدرت أعمال أدبية تضاهي في أهميتهـا النوعية مجمل ما صدر من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٦٧ .

ولم يساهم الكتاب العرب بعد صدور رواية « لاجئة » في التاريخ المذكور الا مساهمة ضئيلة . فاحسان عبدالقدوس الذي كتب عشرات الكتب عن الغرام والوسادة الخالية لم يكتب الا قصة قصيرة او قصتين عن اللاجئين ومعاناتهم من الاحتلال الاسرائيلي . ويوسف السباعي ، وهو كاتب مشهور شهرة عبدالقدوس ، لم ينشر ، كما يبدو ، الا رواية واحدة(٢) تصور القضية بشكل عابر يفتقر الى المستوى الادبي الجدير والقادر على شق طريقه بجدارة الى نفوس القراء الاجانب . اما القصاصون المصريون الاخرون البارزون أمثال نجيب محفوظ ويوسف ادريس ومحمود تيمور والمسرحي — الروائي توفيق الحكيم فلم ينشروا أعمالا قصصية أو روائية من شأنهـا أن تعكس اهتمامهم بالقضية الفلسطينية. القسط الاكبر من الروايات والقصص التي تتناول القضية ، فنيا ، أنجزه كتاب فلسطينيون . وهذا رائع بقدر ما هو متوقع ومبرر ويبعث على الرضا والامتنان والفخر . ونخص بالذكر كلا من غسان كنفاني وسميرة عزام . أن يتصدى الكاتب الفلسطيني لقضيته ويأخذ على عاتقه حمل صليبه أمر يحمل في ثناياه ملحمية هوميروسية وبطولة هرقلية ومعاناة سيزيفية ما بعدها معاناة . وتصديه هذا رد حاسم على اللااكتراث العام والمضاربة بقضيته في سوق السياسة وأروقة الدبلوماسية الزائفة. وليس عيبا أن تمتاز الروايات والقصص الفلسطينية بالحنين الى « الفردوس المفقود » و« الماضي الذي كان ولم يعد » ما دام الحنين حنينا ارضيا ما يزال في حيز الممكن والامكان وليس تمنيا طوباويا محضا ومجردا من الاساس المادي . ولمساهمات حليم بركات استاذ علم الاجتماع الذي رفضت الجامعة الامريكية مؤخرا تجديد عقده وقررت الاستغناء عنه مكان الصدارة في الكتابة عن القضية الفلسطينية . كما لا ينبغي ان ننسى مساهمة الناقد الادبي عيسى الناعوري في روايته القصيرة « بيت وراء الحدود » الصادرة في بيروت سنة ١٩٥٩(٣) الا ان المساهمة شيء والمساهمة الواعية شيء آخر . ولا بد ان الاولوية تسجل ليس للاعمال التي صدرت قبل غيرها من ناحية التسلسل الزمني وانما للاعمال الناضجة العميقة التي تصور وتؤثر عن وعي وبتمكن من الادوات الفنية وسيطرة عليها. فهناك الكثير من الاعمال الادبية القليلة القيمة الفنية بسبب عفويتها . وكمثل على هذا نذكر انه يكفي عقد مقارنة نقدية بين « لاجئة » لجورج حنا الصادرة سنة ١٩٥٢ وبين « عودة الطائر الى البحر » لحليم بركات الصادرة بعد سبعة عشر عاما ، ذلك لاننـا